الصَّمْت وَالموت

قصة بقلم
فاضل السباعي

ـ ١ ـ

لو ان متنبئا موثوق النبوءة يقبل ، اليوم ، على « مهذب ابو سلام » ليقول له بوقار المنجمين : « ان عشرين الساعة الآتية ستكون في حياتك شيئا حاسما ! » ، لما كان لمهذب ابو سلام ان يهتم بقوله او يلتفت اقل الالتفات . فما يعرفه مهذب ابو سلام في نفسه ، ويعرفه فيه زملاؤه في العمل وفي الجامعة معا ، أنه شاب مثقف قد اخذ على عاتقه ان يحل العقل محله في علاقاته مع نفسه ومع الآخرين ، وينبذ تبعا لذلك الدجل والخرافة وتنبؤات المنجمين ... فضلا عن ان ما بات يشغل ذهنه اخيرا هو التفكير في « مؤلفات » عظيمة القيمة بدا يجمع « مادتها الاولية » من بطون الكتب ومن شوادر فكره ، ويقول انه سيكب عليها وضعا وتأليفا متى آن له ان يحصل على اجازته في « قسم الفلسفة » ، بعد اشهر لن تتجاوز التسعة ...

ولقد كان يحلو لمهذب ابو سلام ان يسر بهذه التطلعات الى زميلته في العمل « وئام المعراوي » (تنتسب وئام المعراوي باصولها الاسرية ، الى « معرة النعمان » بلدة ابي العلاء المعري !) ، فيجد عندها تجاوبا نحوه قلما يلقي نظيرا له عند سواها . والحقيقة انه سعيد بزمالة هذه الطالبة الجامعية المتنورة (لم يتح لوئام أن تنتسب الى كلية الآداب قسم الفلسفة ، لنقص في درجاتها ، فاضطرت الى ان تنتسب الى كلية الحقوق آسفة ، كما تعلن امامه) ، قدر سعادته بما تمنحه اياه من التأييد لافكاره والاعجاب بآرائه ، التي غدا يؤمن بانها قيمة حقا ! واذ خرج من حجرتها ، في الساعة الثانية عشرة ، عائدا الى حجرته ، قرر بينه وبين نفسه على نحو جازم : انه لمن العسير ، في ايامنا هذه ، ان يعثر رجل على فتاة رائعة مثل وئام المعراوي ، لا لانها بارعة الجمال (فهي ، في رايه ، على قدر معتدل من الملاحة) ، ولكن لان فيها قدرا عاليا من صفاء التفكير الذي يتكشف له لقاء بعد لقاء ، فضلا عما استهواه فيها من ايمان عميق بالقيم الانسانية التي كرس نفسه للعمل من اجل رفع رايتها في حياته الطامحة الآتية !

ولمح ، وهو يجتاز الممر الطويل عائدا الى حجرته ، زميله « علي بارود » مقبلا نحوه ، متابطا كتابا بدا له كبير الحجم . فابتسم محدثا نفسه : أنا لم ار ، خلال سنوات عملي التي قضيتها في المؤسسة هنا ، زميلي علي بارود يقرأ كتابا !!

سأله :

ـ ما هذا الكتاب النفيس تحت ابطك ، يا استاذ علي ؟

أجاب علي بارود :

ـ كتاب عنوانه « أبناء العالم يجب ان يعيشوا في سلام » !

فهتف مهذب ابو سلام في نشوة :

ـ هات لارى . انه لسفر عظيم اذن . من أين حصلت عليه ؟ دلني ... (وتراءى له ان يداعب زميله) وما شانك بسفر من هذا النوع ؟ لخير لك آن ... ان تقرأ سفرا يكون عنوانه « ابناء العالم يتراشقون بالبارود » ، يا استاذ « بارود » !!

ثم سرعان ما ادرك ، بعد هذه الدعابة الفجة ، ان زميله لن يدعها تمر دون أن يعقب عليها بالقول الجاد :

ـ ان « الاسماء » ، وهي تفرض علينا منذ الولادة ، لا تعني في الحقيقة شيئا ، يا أستاذ مهذب ! ولكن ما يجب ان يوضع في الاعتبار هو المبادىء التي يعتنقها الانسان بعد الولادة . هاك مثلا اسرتكم ، اسرة « أبو سلام » ... (أحس مهذب ابو سلام ، هنا ، بالحزن يهصر قلبه) نحن نعرف من ابنائها اثنين : أنت ، واخوك « ضرغام أبو سلام » . عرفناك أنت وديعا ، مسالما ، مؤيدا للنظام ... وعرفنا اخاك الاكبر .... ماذا يمكنني أن أقول ؟ اخشى أن ..

توسل اليه مهذب أبو سلام :

ـ لا تقل شيئا ، أستاذ علي ، ارجوك .

الا ان علي بارود تابع يقول غير آبه :

ـ أخوك ضرغام ، نعم ، لم يعصمه ما في اسمه من لفظ « السلام » ، من آن يعتنق مبادىء ، قالوا انها متطرفة وثائرة وفوضوية ، مما برر لخصومه السياسيين آن يسددوا اليه ...

ـ كفى ، كفى !

ـ وأما نحن ، أسرة « بارود » ، فلم يطلع منا احد ...

ـ يبدو اني أسأت اليك في دعابتي . اني أعتذر !

فتهلل وجه علي بارود :

ـ لا ، يا أستاذ مهذب . لست غاضبا من شيء . أنا اجاريك في دعابتك ، ليس الا ... ان الاسماء ، في الحقيقة ، لا تعني ...

ـ طيب ، من اين حصلت على هذا الكتاب ؟ اريد أن احظى بنسخة منه .

ـ من « مكتبة الفكر العالي » التي تعرف . هتف الي خالي الساعة ، ورغب أن اعود اليه بنسخة من ...

ـ شكرا ، استاذ علي ، شكرا ، شكرا .

اغلق مهذب ابو سلام باب حجرته وراءه ، وانشأ يسائل نفسه في جد صارم : كم تراني اخطأت في مداعبتي لزميلي علي بارود ، على نحو ادى الى ان يذكرني بمأساة اسرتي في اخي ضرغام !!

والحق ، ان مهذب واخاه ضرغام ، هما على طرفي نقيض في النظرة الى الوجود وفي تطلعهما الى تفيير العالم . ولطالما ناقش مهذب ـ يوم كان فتى طري العود ـ اخاه ضرغام في آرائه . وما كان له أن يؤمن قط بمبادىء تقوم على العنف ، حين فطر هو على الوداعة والونام ، حتى لكأن البطن التي حملته غير البطن التي حملت اخاه! واذ وضع اضطراب الموازين عند بعض الناس حدا لحياة اخيه ، يوم سدد نفر من خصومه الى قلبه ثلاث رصاصات قاتلات ، فان ذلك لم يجعله يجنح الى التعاطف قيد شعرة مع معتقد اخيه ، الذي ذهب « شهيدا » لمعتقده على اية حال ، بل وجد انه اشد استمساكا بقيمه هو ، تلك التي تقوم على مناهضة العنف في جميع صوره والوانه: العنف في الرأي ، والعنف البدني ، واستعمال الاسلحة المدمرة جميعا . ويومذاك ، قبل سنوات ثلاث ، اذ تعين عليه أن يختار احدى كليات الجامعة ينتسب اليها ، احس انه منجذب الى دراسة الفلسفة، وقد اشرق في خاطره موضوع مؤلفه الاول : « العنف لا يحقق للانسانية خيرا » !

ـ ٢ ـ

لم يفت مهذب ابو سلام أن يمر بمكتبة الفكر العالمي . فسلم على صاحبها ، ذلك الكهل الطيب ، طالبا منه كتاب « ابناء العالم يجب ان يعيشوا في سلام » . فقام الرجل من وراء مكتبه ، وارتقى درجتين خشبيتين ، وتطاول بجسده حتى بلغت يده الكتاب .

نظر في فهرس الكتاب مليا ، فوجده حقا سفرا قيما . وههنا اخذ يخاطب نفسه : ان عليك أن تقدم وافر الشكر الى زميلك علي بارود ! واستدرك : ولكنه جرح احساسي ، لقد جرح علي بارود احساسي باستطراده الذي لم يكن ثمة مبرر له ! وعاد يقول : ولكن اخاك « ضرغام ابو سلام » ـ هذا الاسم الذي غدا كبيرا ! ـ بما اعتنق من مبادىء كبرى ، لم يعد ملكا لك ولوالديك المسنين ...وفكر: ان الحديث عن اخي ضرغام ، وان تقويم معتقداته الفكرية وابداء الرأي في مصيره الذي انتهى اليه ، ذلك كله قد امسى ، منذ دخل اخي تاريخ بلده السياسي ، من حق المواطنين جميعا .

راق له موضوع الكتاب جدا ، حتى لقد هتف من فرحته : ليت زميلتي ونام المراوي ترى هذا السفر معي ! وقرر بسعادة : سابدأ في مطالعته منذ اليوم ... أتوجه به ، بعد تناولي الفداء ، الى شاطىء النهر ، هناك ، حتى ساعة انسحاب الشمس الى ماوراء الافق . واعلن : ما يزال من حقي ان اطالع في غير الكتب الجامعية المقررة ، ما دام العام الجامعي لما يبتدىء بعد . وفكر : خير مكان للمطالعة الممتعة ، ذاك المغنى الوادع ، عند شاطىء النهر . واستدرك: واما بيتي ؟ غرفتي الصغيرة التي عثرت عليها بعد السعي الدائب...

وملأت صدره فرحة !

لقد جد بحثا عن غرفة في احد البيوت في المنطقة التي تتوسط الطريق ما بين الجامعة والمؤسسة التي يعمل فيها . ولطالما رغب في أن يجد ، في هذا الحي ، غرفة تناسبه . وقد سعى ، خلال الاسابيع الماضية ، سعيه الحثيث ، حتى عثر عليها : غرفة في بيت مؤلف مكون من غرف ثلاث ، شغل هو احداها ، وشغل الثانية بعد يومين طالب جامعي يدعى « زكي زمار » ... فاستغنى بذلك عن ان يستقل في يومه المواصلات . ولكن سره ، من ناحية اخرى ، ان يكون هذا البيت قريبا من اول ذلك الشارع العريض ، الذي يسعه أن يضرب فيه، عصر كل يوم ، سيرا على القدمين ، وكتاب من كتبه الفكرية القيمة تحت ابطه ، حتى ينتهي الى ذلك الموضع من شاطىء النهر، الذي تعرف فيه على مغناه الوادع .

فكر مهذب أبو سلام ، وهو يتداني من بيته : سأبدأ ،منذاليوم، في ارتياد هذا المغنى ، فاقرأ فصولا من هذا السفر ، بين الاشجار التي تعبق فيها رائحة الخريف ، ثم ـ واستشعر نشوة طاغية ـ أرخي لتاملاتي العنان وراء معاني الكتاب ومراميه . وهتف في ثقة : لم يعد بعيدا الحين الذي أكب فيه على تاليف كتاب يعالج موضوعا من هذه الموضوعات ... آه ، هذه الافكار كم تؤرقني !

ثم فكر في أسى : كان أخي جديرا بأن يعطي مؤلفات عالية القيمة، او لم يعاجلوه ! وقرر : كان اخي ضرغام نابغة حقا . ولكني اعترف بانه كان ، الى ذلك ، غرا ... أجل ، هو غر في بعض جوانب شخصيته كان يكبرني بأعوام عشرة ، ولكني اسمح لفروري ان يزعم انه لم يكن ارجح مني ، في سني الان ، عقلا ! لسوف أظل اومن بان العنف شيء قذر ، قذر جدا ، وغير مجد للانسانية في شيء . بالعقل ، بالمنطق ، بالحوار المفتوح ، نبلغ بالامور غاياتها . ولكنهم ، آه ... وتعاظم الاسى في صدره : ألم يجابهوه ـ هم ـ بعنف افظع من عنفه الذي نادى به ، واضرى ! لقد قتلوه غيلة ، وهو الذي لم يبلغ عنفه النظري جزءا مما باشروا نحوه من عنف فعلي !

ان ما يحزن مهذب ابو سلام ، أن يصرع انسان في سبيل راي انسان أعزل ، يعلن رأيه باللسان ، فيصرع في سبيل رأيه . قولة « فولتير » تتردد في خاطره على الدوام . ان ما بينه وبين اخيه ، في المعتقد ، لمختلف جدا . ولكنه لم يستطع ، رغم السنين الثلاث التي تقضت ، أن يخرس انين الالم الراعف في قلبه ابدا .

قرأت عيناه :

« القوة » جريدة يومية سياسية .

انها لسان خصوم اخيه السياسيين .

وانعطف صوب بيته الجديد .

يوم اغتيل اخوه ، لم تخف هذه الجريدة شماتتها ، مصورة شهيد الراي وكأنه احد قطاع الطرق ارداه رجال الامن في مطاردة في شعاب الجبال !

وجد مهذب ابو سلام نفسه ، وهو يدلف الى درج البناية، مستثارا على نحو واضح . وهكذا قدر عليه أن يقيم ، آخر الامر ،الى جوار الجريدة الناطقة بلسان قتلة اخيه ، وقد استووا على كرسي الحكم ، فيمر من امام مكاتبها ، في غدوه الى عمله صباحا وفي مضيه الى الجامعة ... ويقرأ اسمها العريض : «القوة» ، فتنتابه قشعريرة وتثور في خاطره امواج من الفكر !

وخاطب نفسه ، وهو يفتح الباب : لقد دخل اخوك تاريخ البلد السياسي من اوسع ابوابه ... فمن حق المواطنين ان ...

ـ ٣ ـ

في صالة البيت ، وقع نظره على نزيل المسكن «زكي زمار». وما كاد يلقي عليه التحية ، حتى عاجله جاره الجديد سائلا :

ـ ما لك متجهم الوجه ، يا استاذ مهذب ؟ خيرا ، ان شاء الله ؟

فاجاب مهذب ابو سلام بصوت يرشح مرارة :

ـ خير للمرء أن يعتصم بالصمت ، وان يحمل لسانه على الصوم عن كل ما يسمى دعابة او مزاحا !

هتف زكي زمار ، طالب الهندسة ، عاجبا :

ـ وهل هذا الغضب كله من اجل دعابة ؟ (آخذا من يده السفر الثمين) وما هذا الكتاب ؟ (قرأ) « ابناء العالم يجب ان يعيشوا في سلام » !! الله ... واي عنوان ! انه جملة مفيدة ! اعانك الله على هذا الكتاب الضخم . كيف يتاتى لك ان تقرأ مثل هذا الكتاب ؟!

أعلن مهذب ابو سلام :

ـ انه كتاب يتحدث عن القضايا الانسانية الكبرى ، ويبصرنا في ذلك بقضايا امتنا ، مما يقع في وطننا بحدوده القصية وحدوده السياسية الدانية ... (وتراءى له ان يطرح على جاره سؤاله) هل تؤمن بالسلام ، يا صديقي ؟!

وبدا زكي زمار وقد فوجيء بالسؤال ، فانشأ يردد :

ـ السلام ! السلام ! ... ولكن لهذه الكلمة ، اليوم ، معاني عدة . انها ، في نظر بعضهم ، « اصطلاح » ذو دلالة خاصة !

فأبدى مهذب ابو سلام شيئا من ضيق :

ـ أوه ، يا أخ زكي ! انما اعني السلام بأعم معانيه ، بالمعنى اللغوي الخالص : ان يحيا كل منا مع الاخرين ومع نفسه في سلام ، في ونام ، في تصالح ... أتؤمن بالسلام في معناه هذا ؟

فكر زكي زمار لحظة ، قبل ان يعلن متحفظا :

ـ بهذا المعنى ... أومن !

ـ وتؤمن بحرية الانسان في التعبير عن رأيه ؟

ـ لا شك ، لا شك .

ـ طيب ... ما رأيك في ان تقتالني فئة من الناس سياسية الهوى ...؟

فقاطعه زكي زمار :

ـ لا سمح الله .

ـ ... بدعوى اختلافهم واياي في الرأي؟

تساءل زكي زمار وقد اتسعت مقلتاه :

ـ وهل وصلت المسألة حد الاغتيال ؟!

ـ أو آن يغتالوك أنت ، لاسمح الله ، بسبب اختلافهم واياك في الرأي أيضا ؟

فبادر زكي زمار يعلن :

ـ يكون ذلك شيئا شنيعا ، حقا ! (ثم صفق مناديا) سلمان، يا سلمان ، تعال شاركنا في هذا الحوار الغريب المتع ، يا جارنا الجديد ! (وعاد الى مهذب ابو سلام) لقد شغل الفرقة الثالثة، اليوم ، صديق لي . (ولاح في باب الفرقة فتى طرير الشارب ، فقام زكي زمار بواجب التعريف) « سلمان عزالدين » ، سنة اولى تجارة... مهذب ابو سلام ، رابعة فلسفة ...ان الاستاذ مهذب ، ياصديقي ، يتكلم في موضوع الاغتيال السياسي وشناعته !

وجد مهذب ابو سلام نفسه ، هنا ، وقد اتقد حماسة :

ـ من اعماق وجداني اقول لكم : ليس ثمة اشنع من ان يحكم على انسان بالاعدام بسبب رأيه المخالف للجماعة ! واما ان يقتل ذو الرأي « غيلة » ، فتلك فظاعة هي المأساة عينها ، بل انها تدخل في مضمار الكوارث الانسانية ! ان من يعدم او يقتل من اجل رأي ، هو عندي من الشهداء .

ـ فاعترض زكي زمار :

ـ على كل حال ، أن نعتبره شهيدا او غير شهيد ،ذلك يتوقف على معرفتنا رأيه الذي صرع من اجله : أهو رأي صالح ؟ ام انه يقود الى اضرام الفتن العمياء ، مثلا ؟!

قال مهذب ابو سلام في نبرة لا تخلو من حدة :

ـ بل هو في عداد الشهداء الابرار، ما دام لم يقدم الى محاكمة، أية محاكمة . انه بريء ، مهما يكن رأيه الذي جهر به في حياته.

تساءل زكي زمار :

ـ حسن ، وهل هذا الامر مما يعالجه كتاب « ابناء العالم يجب ان يعيشوا في سلام » ؟

ـ لم اقرأ الكتاب بعد . ولكن مسألة الاغتيال السياسي ما تبرح خاطري قط ... لان احد أفراد اسرتي ... لان اخي ، قد لقي مصرعه غيلة قبل سنوات ثلاث !

كانت عينا طالب التجارة المستجد ترامقان مهذب ابو سلام في قليل من الاكتراث . فلما ذكر ان أخا له قد اغتيل ، انفتحت العينان على وسعهما في انشداه كبير :

ـ أيكون ... ضرغام ابو سلام ، آخاك ؟!

ولحق به زكي زمار :

ـ نعم ، ضرغام اخي ، شقيقي الاكبر ، الذي ليس لي اخ سواه.

هتف الاثنان مذعورين :

ـ أوه !!...

وأضاف سلمان عزالدين :

ـ ولكن ضرغام ابو سلام كان ... لست ادري كيف اعبر !

حين اعلن زكي زمار غير موارب :

ـ كان اخوك عنيفا الى الفظاعة ! نحن سمعنا عن آرائه المتطرفة، وقرأنا عنه المقالات المطولات ... حتى آن الحديث عن العنف في وطننا يقترن باسمه على الدوام !

فبادر مهذب ابو سلام يسأله بنبرة متحفزة :

ـ وأين قرأت عنه ؟

أجاب زكي زمار :

ـ في جريدة « القوة » ، الذائعة الصيت .

وأحس مهذب ابو سلام انه قد استثير على نحو بالغ ، فانطلق يهدر :

ـ حسن ، هأنتم اولاء تستقون معلوماتكم عن اخي ضرغام من خصومه ، من خصومه السياسيين المتهمين بقتله . نقول : الحديث عن العنف مقترن باسمه . ولكن اي عنف مارس اخي في حياته «النظرية»؟ هل قتل معارضا من معارضي رأيه ؟ هل سدد مسدسا الى صدر أحد؟ واما خصومه فقد قتلوه ! سددوا الرصاص الى قلبه فقتلوه ! فأي الفريقين اجدر بان يسمى داعية عنف ؟ انتم تذكرون ما كتبته جريدة « القوة » في تبرير الجريمة التي اقترفت ، لكنكم لا تتساءلون عن اليد التي غدرت به من تكون ؟ ان جريدة « القوة » ، في دفاعها عن الجريمة ، تدين في الواقع نفسها ومبادئها ، وتؤكد لذوي العقول الراجحة انها لا تؤمن بحق المواطن في التعبير عن رأيه ، ولا بحقه في ان يعيش وهو معتنق رأيا غير رأيها . تلك الجريدة جدير بها ، اذا ما طبقنا عليها منطق التبرير الذي تأخذ به ، ان ... تدك من أساسها ! ان قتل اخي ضرغام ، في وضح النهار ، وضياع دمه هدرا ، مأساة ليس لي ان انساها ابدا !

ودخل غرفته الصغيرة ، مغلقا دونه الباب .

ـ ٤ ـ

اتخذ مهذب أبو سلام جلسته في المقعد الوادع ، وفي يده كتاب « أبناء العالم يجب أن يعيشوا في سلام » . يقرأ فيه صفحة، أو أسطرا من صفحة ، ثم يرفع ناظريه ، متأملا ، متفكرا في روعة الكنوز الفكرية التي يعثر عليها في السطور وما وراء السطور .

وذكر ، بحنان ، زميلته ونام المراوي . وتمنى من كل جوارحه لو انها ، الساعة ، الى جواره على انحشائش الخضراء : يقرأ لها حينا فتصغي ... ثم يأخذ كفها بين راحتيه ... وماذا لو لثم جبينها ، في غفلة من العيون ؟؟...

وتوجه ، بينه وبين نفسه ، بالشكر ثانية الى زميله علي بارود أنه هداه ـ ولو بالمصادفة ـ الى هذا السفر الرائع . وتبسم : لقد أثارني بحديثه عن اخي ، وما كان ينبغي ان أثور ! فانما كان زميلي يتكلم على سجيته ، صريحا غير متحفظ ، فلم جرحتني صراحته؟

وانا الذي اجتهد في آن أربي نفسي على تحري الحقيقة والنهوض بأعبائها . ولماذا ثرت في البيت ، على مرأى من جاري زكي زمار وسلمان عزالدين ، حتى لقد صرفت الفاظا لا أقصدها ! لقد كان ذلك خطأ مني ، كان ـ للاسف ـ خطأ فاحشا !

وعاد الى الكتاب : أي مصباح احمل بين يدي ، يستضيء بنوره عقلي وقلبي ! مؤلفه ، كم هو رجل كبير ، انسان كبير ! انه يطرح هذه المسألة الاولية : هل « يتعرف » الانسان اولا ثم « يختار » ؟ ام أنه يجد نفسه « ملتزما » بموقف ما منذ البداية، فيسعى الى « تبرير » موقفه ؟ الحقيقة ، الحقيقة ! ما أشق السعي لبلوغها ، وانبله ، وأروعه !

وتساءل : في التزامي موقفي من قضايا مجتمعي ، ووطني ، والانسانية ، اتراني أتعرف أولا ثم اختار وألتزم ؟ ولكن الانسان يجد نفسه أحيانا ملتزما بحكم البيئة او بحكم الوراثة .وخاطب نفسه: أنت ورثت عن والديك دينهما فالتزمت به . ليس للانسان بعد، في هذا العالم ، ان يولد حياديا في الدين ، ثم يتعرف على الاديان كافة ليختار منها ما يوافق مزاجه وذهنيته !

ولكن ماذا عن آراء اخي ؟ لقد كان ضرغام يناقش فيها نهاره وليله . كنت أشهد في بيتنا ـ مذ كنت صغيراً ـ رفاقه في المعتقد واصغي اليهم ، حتى توضحت لي ، على مر الايام ، حقيقة معتقدهم الفكري والسياسي . اجل ، ولكن ، هذه « البيئة » لم تغرني أو تؤثر فيّ ! نشأت ـ على النقيض ـ كأرها لخط عريض في معتقدهم :العنف وسيلة للوصول الى الحكم !آمنت دائما آن : السلام ، السلام،المحبة، المنطق ، الاقناع ، هي السبل الافضل التي تقود الى حل اشدالقضايا عسرا ، أيكون ذلك « رد فعل » لما عاينت في اخي من رأي يحبذ العنف ويكرسه سبيلا ؟!

دوى ، في هذه اللحظة ، انفجار هز ارجاء المدينة !...

أرهف مهذب أبو سلام سمعه : أي يد آثيمة ؟ أم تراه انفجارا وقع بالخطأ ؟

حاول أن يعود الى الكتاب ، أن يمر عينيه على السطورالناعمة. تراءت له بين الحروف السنة من لهب . السنة تتصاعد ،وتتصاعد .. حتى لتكاد تلمس اصابعه !

رمى الكتاب جانبا . وسما بناظريه الى اعالي الاشجار ، بعيدا عن اللهب الموهوم . ولكن نظره ارتد ، رغما عنه ، الى الكتاب الملقى الى جواره . هوذا اللهب يندلع . خاف على كتابه الغالي : « ابناء العالم يجب ان يعيشوا في سلام » . هم بان ينقذه . لامس اللهب اصابعه ، أحرقها ... آه ، ان اللهب يمس وجهه !!

يا للرؤيا ! كان الكتاب موسدا على الحشائش ، لم تمسسه نار! فاية رؤيا !

واستبد به عجب عظيم .

ان هذا الانفجار الذي روع المدينة الآمنة ، سيكون في جملة بواعثه على تاليف كتابه المنتظر : « العنف لا يحقق للانسانية خيرا »!

ـ ٥ ـ

سار مهذب ابو سلام في محاذاة النهر عائدا الى البيت،والسعادة تغمر قلبه : لسوف احدث ، غدا ، زميلتي وئام المعراوي عما وجدت في هذا الكتاب من الفكر الرائعة . ولسوف تطرب لي ، هذه الصديقة الآنية .

واذ غدا في مشارف حيه الجديد ، عاد يستشعر سعادة : قد حظيت ، اخر الامر ، بغرفة هي أقرب ما تكون الى مقر عملي ،والجامعة وذاك المغنى ..

استرعت انتباهه ، وهو في المنعطف المؤدي الى البيت ، سيارة بكتظ بجند يتابطون الاسلحة الاوتوماتيكية الخفيفة ... حدث نفسه: تبا له من مجرم ، ما أشد عتوّه ، يطاردونه !

هاهم أولاء يتخفون في المنعطفات ، وايديهم على سلاحهم.

في مدخل البناية ، تلك التي سكنها منذ يومين ، رجلان منهم، بل ثلاثة ، اربعة ، عشرة ... يموجون ! اي خطب في البناية !

ألقى عليهم التحية :

ـ السلام عليكم ، يا رجال !

فالتقت عنده الابصار .

قطع عليه كبيرهم سبيل الدخول :

ـ من آنت ؟ ما اسمك ؟

اجاب :

ـ مهذب ابو سلام .

فاذا هم يحيطون به احاطة السوار باد ... :

ـ تفضل معنا !

ابتسم لهم في دعة :

ـ الى أين ؟

ـ هناك تعرف !

وسرعان ما تخطفته الايدي ، من كل جانب ، متعاونة على حمله.. وأخذوا يركضون به ركضا ! وجد نفسه بين ايديهم ، خفيفا ، يسري كروح هائمة ، حتى لا تكاد قدماه تمسان الارض ! ويده ، في ذلك، تستبسل في الحفاظ على كتابه .

ـ ولكن ... ما الامر ؟ ما الحكاية ؟

لم يظفر بجواب .

ودفع الى داخل السيارة ، المتاهبة ، في المنعطف ... فتلقته أيد اكثر لهفة ، واحتضنته ... والعيون ، التي أومضت ، تتملى منه النظر كما لو انه « كنز » عثروا عليه بعد طويل تنقيب !!

سألهم ، وقد أخذت السيارة تطوي به الارض طيا :

ـ ما الحكاية ، يا رجال ؟ خبروني !

فجاءه الرد من كبيرهم :

ـ يمكنك ان تسد فمك !

يا للغباء ! أيحسبونني مطلوبا للسلطة ؟ يا للظن الغبي !

وازداد احساسا بالاشفاق على الانسانية المعذبة .

ـ ٦ ـ

انزلوه من السيارة محفوظا بالرجال . وهو يهزأ في سره :يالخيبتهم! ومشى بينهم ، بقامته المتوسطة الطول وجسمه الضامر ، عبر دهليز معتم طويل ، انتهى الى حجرة ... رأى فيها مكتبا وسريرا .

ـ ما اسمك ؟

فكر مهذب أبو سلام : يبدو آني امسيت ، فجاة ، شخصية مرموقة :

ـ مهذب أبو سلام .

ثم تتابعت الاسئلة :

ـ ما القرابة بينك وبين ضرغام ابو سلام ؟

ـ انه آخي ، شقيقي .

ـ اين تعمل ؟

ـ في « مؤسسة ...» .

ـ وأين كنت الساعة ؟

ـ مع هؤلاء ، الذين اقتادوني اليك !

بدا السائل ، وهو وراء مكتبه ، كمن يحاول ان يكظم غيظه. صرخ :

ـ أعني قبلها ... قبلها ؟!!

ـ كنت في ذلك المغنى الجميل ، الذي يفضي اليه الشارع العريض . المحاذي للنهر .

ـ في « المغنى الجميل » ... اذن ؟!

ـ نعـــم .
ـ ومن كان معك ، هناك ؟
تبسم مهذب ابو سلام :
ـ « صديق » !
فتأججت في صوت الرئيس لهفة واضحة :
ـ صديق ؟ من هو ؟
ـ هـــذا !!
رافعا يده بالكتاب !
استشاط الرجل غضبا :
ـ أنت تسخر مني ، يا كلب ؟!
احتج مهذب أبو سلام :
ـ ولكنك تشتمني ! انت تشتمني ، يا سيـدي ؟ انـا لا احدثك الا بالصدق !
زأر الرئيس :
ـ تتظاهر بالبلاهة سترا لـ ...؟! تكلم : من كان معك ؟
ـ كنت أقرأ في هذا الكتاب « أبناء العالم يجب ان يعيشوا في سلام » . الذي دلني عليه صديقي ... (حاول ، عبثا ، ان يتذكر اسمه الاول) بارود ...
فجمجموا من حوله ، مرددين :
ـ بارود ! بارود !...
صرخ الرئيس :
ـ من أين حصلت عليه ؟
ـ من « مكتبة الفكر العالي » .
امر الرئيس :
ـ ايتوني بصاحب مكتبة الفكر العالي حالا . (ثم ملتفتا الـى مهذب أبو سلام) اذن ، فقد بلغ الامر حد ان تقوم المكتبات بتوزيـع المتفجرات عليكم ؟!!
تساءل مهذب أبو سلام :
ـ أية متفجرات ؟!
ـ أنت قلت اللحظة ... أتنكر ؟
ـ لم تجر كلمة « متفجرات » على لساني ، يا سيدي!!
صرخ الرئيس :
ـ انت قلت : « متفجرات » ، او (ديناميت) ، لا ادري !
تمتم بعضهم :
ـ (بارود) ، قال (بارود) ، سيدي .
ـ شيء واحد !
صحح لهم مهذب ابو سلام :
ـ بل قلت : دلني على الكتاب صديقي « علي بارود » ، فاشتريته من مكتبة الفكر العالي !
ـ بدأت في انكار « افاداتك » ؟ كل شيء عندنا يسجل ! ان تغابيك لن يجديك نفعا . هيا أجبني : ما حملك على أن تنتقل ، منذ يومين ، الى المسكن الجديد ؟
ـ توسطه ما بين المؤسسة وبين الجامعة التي أتردد عليها .
ـ لا لسبب اخر ؟
ـ لا .
ـ فكر جيدا : وغايتك المبيتة ؟
ـ أية غاية ؟
ـ ان كنت تعتقد ان دهاءك سيطلقك من قبضتنا ، فانت فـي وهم كبير ! اننا نحقق في اكثر القضايا تعقيدا ، فنكتشف فاعليهـا ! طيب ، ما رأيك بجريدة « القوة » ؟
ـ لا أؤيدها !
ـ لمـاذا ؟
ـ لانها متطرفة .
ـ ولكنها ... جريدتنا نحن !
ـ ولـــو .
ـ أهي أكثر تطرفا من ... أخيك ، الذي دأب على الدعوة الى الثـــورة ؟!
ـ كان تطرف أخي في اللسان . واما « القوة » ، فقد ايدت قتل اخي ، ذلك العمل الفظيع ، دون ان تحض على تعقب الجناة ! فضلا عن انها عمدت الى التشهير به وبمبادئه ، حتى لقد صورته للجماهير خارجا على القانون ، مستحقا هذا القتل !
ـ اذن ... فموقف « القوة » من مقتل اخيك ، مقتله الغامض المجهول ، هو الذي برر لك آن ... تدك الجريدة من اساسها !!!
فكر : ان هذه العبارة ....
تساءل ، وهو يكد ذاكرته :
ـ دك الجريدة من أساسها ؟!
ـ ثم مضيت الى « مغناك الجميل » ، الذي يفضي اليه الشارع المحاذي للنهر ! وما لبثت ان عدت ، تسير الهوينا ، وكأنك لم تقترف جريمـــة !
ـ ولكن ... أية جريمة ؟ أنتم واهمون ، ان كنتم قد القيتـــم القبض عليّ لاعتقادكم اني اقترفت جريمة ما ...
قاطعه رئيسهم :

ـ تبدو لي شديد الثقة بذكائك ، ايها الفتى ! انك لتخفي،تحت مظهرك الساذج ، ما يريب حقا ! لقد ظللت تلوب زمنا ، بحثاعن مسكن قريب من مقر الجريدة ، الى آن عثرت عليه . ولم يمض سوى يومين، حتى كنت قد خرجت من بيتك الجديد ، الى مكتبة الفكر العـــالي، كما ذكرت ، فتسللت « الامانة » : بارودا ناسفا ، وكتابا للتضليل ! نسفت الجريدة ، وغدوت بالكتاب الى « مغناك » ، حيـث امضيت بعض الساعة ، ثم عدت الى بيتك مكين الاعصاب ! كذلك كان الامـر في تفاصيله الدقيقة . يالك من مواطن رهيب ! ان اطلاقك حـــرا كفيل بأن يمكنك من ان تدك بنيان السلطة مدماكا وراء مدماك! ولكنا وفقنا الى القاء القبض عليك عقب جريمتك الاولى . سنحملك علـــى الاعتراف بجميع خططك ، وباسماءشركائك ! آلن تعترف ؟؟
ـ ولكن ... بم اعترف ؟!
ـ بانك قمت ، في الساعة السادسة والدقيقة العشرين من هذا المساء ، بنسف جريدة « القوة » ، انتقاما لمقتل اخيك الثائرالفوضوي ضرغام ابو سلام ؟!
ـ ان مبادئي في الحياة ، يا سيدي ، تقوم على تقديس السلام. ان افكاري لا تلتقي مع افكار اخي ضرغام قط . اننا ، في هذا ،على طرفي نقيض . انا ، في حقيقتي ، ضد العنف الى ابعد حـــد تتصور !
ـ ولكنا ، نحن ، ابتداء من الساعة ، مع العنف ضدك !(وهدر صوته آمرا) خذوه !!

(٧)

جعلوه وسط حلقة ، قوامها عشرة اشداء .
يتلقى الضربة من احدهم ، فيترنح تحت وطأتها ، حتى ليميل على من يليه . فيركله هذا بقدم ، بساق قد مرّنت ، فاذا هو ينقذف الى الجانب المقابل ... فيستقبله احدهم بكلمة حنون :
ـ أهلين ! أوجعوك ؟ خذ !!
وتستقر الكلمة ، هذه المرة ، في بطنه . فينحني يتلوى ، ويهوي على الارض .
يدعونه لحظات ، ريثمـا يسترد شيئا من عافيـة تقيمـه علـى ساقيه ، ويستجمعون هم مزيدا من التحفز والنشاط .
لقد سمع مهذب ابو سلام ، وقرأ كثيرا ، عن التعذيب الجسدي،

دون ان يقدّر انه خاضع له في يوم من الايام . كان يظن ان ما يخفف من آلام العذاب ، ان يطلق المعذب الاستغاثات بملء فيه . ولكنه لا يجد متسعا ليزفر صرخ ...

ـ ابن الشه ... لا يصرخ ، لا يستجير !

كرة اصبح بين ايديهم . وحين تسقط اتكرة على الارض ، فتنطفىء حركتها ، ينحني أحدهم ليلتقطها ، فيقيمها ، ثم يدفع بها ، بركلة يودع فيها منتهى عزمه ، الى احد الرفاق.. .

كان الانشداه ، الذي سيطر على مهذب ابو سلام ، اكبر من الالم . وكان حزنه على الانسانية المعذبة اعظم وابلغ . ان اشفاقه على هؤلاء الجلادين احساس جديد ، ماكان له ان يعيه لولا هذه التجربة . لسوف يجعل عنوان كتابه المنتظر : « يا ابناء العالم افضوا على الهمجية » !

واذ سقط ، هذه المرة ، على الارض ، تراءت له صديقته ونام المعراوي .. تبكي .

ولم تقو السواعد المفتولة على ان تقيمه على قدميه من جديد . زمجر احدهم :

ـ لو أن ابن القـ... يطلق انة واحدة !

(٨)

ـ ... وماذا تعرف عنه ؟

أجاب سلمان عزالدين ، بادي الخوف :

ـ لا أعرفه . انا لا اعرف عنه شيئا ، يا سيدي . فانما نزلت، ضحى اليوم ، جارا له ، والله .

ـ وانت ، يا زكي زمار ؟

لمح مهذب ابو سلام ، حول الاعين ، كدمات .

ـ اقتحم البيت ، ساعة الظهيرة ، متجهم الوجه ! (زكي زمار يتكلم بطلاقة) تحدث عن اخيه ضرغام ابو سلام على نحو عاصف ! وصفه بانه من « الشهداء الابرار » ! انا ، اقول الصدق ،اعترضت عليه : « ذلك يتوقف على معرفتنا معتقده الذي صرع من اجله».وزعم ان قتل اخيه غيلة « فظاعة تبلغ حد المأساة » ، وهي مأساة « لن ينساها ابدا » ! اكرر في مواجهته ، ما سبق ان ادليت به من انه هدد بان « يدك جريدة القوة من اساسها » ! ثم دخل غرفته غاضبا، لينطلق منها بعد دقائق ، الى حيث لا ادري . وهذه افادتي،سيدي!!

لبث مهذب ابو سلام صامتا لا ينبس : وماذا يجدي ، بعد، الكلام ؟!...

وفكر بأسى : ان الفتى الطرير سلمان عزالدين ينكرني كما انكر « بطرس » ، بعد العشاء الاخير ، السيد المسيح ! واما زكي زمار، فهو « الاسخريوطي » عينه ، وقد بعث حيا ! وتساءل : ترى لو انهم اتوا اليّ ، الان ، بعلي بارود ، فماذا .. ؟

وتمثل ، في خاطره ، صديقته ونام المعراوي ، تحنو عليه في سرير .

(٩)

استدار الرجل ذو الرداء الابيض ،وقد فرغ من فحصه ، متوجها نحو الباب ، فتبعوه .

تركوه ملقى على الارض لا حراك فيه .

ترامى الى سمعه :

ـ آه ! والله لا علم لي !

التاوهات تترى الى سمعه ، عبر الحديد المقضب في اعلى الجدار .

وقع السياط القاسية على الاقدام المتورمة ! بعد كل سوط،صرخة انين :

ـ آه !

ثم يخرس الصوت ، وكأنه يتيح للاذن ان تتهيأ لتلقط وقع السوط التالي .

ـ يا عالم !

ويهوي السوط .

ـ يا هوه ! والله لا علمي ولا خبري !

كان الصوت ، وهو يصيخ بجوارحه كلها ، واهنا مكدودا.بدا له صوت رجل مسن طاعن !

ودخلوا عليه ، يحملون رجلا قد انطوى على نفسه فهو لا يقوى على المسير .

تفرس فيه : يا للخزي ! انه صاحب مكتبة الفكر العالي !!

ـ أنست انت الذي سلمت مهذب ابو سلام القنبلة ؟ قل الحقيقة .

أحس ، لدى سماعه هذا الاتهام ، انه قد جلل بالعار !

أجاب الكتبي بصوته المكدود :

ـ والله لم افعل ... وانما ... مر هذا الشاب بي ، عصر اليوم ، ان لم تخني الذاكرة ، وطلب مني كتاب « ابناء العالم »... فصعدت الى الرف العالي واتيت له به .

ـ والقنبلة ؟

ـ والله العظيم ثلاثا .. .ما تعاطيت هذه المسائل ،عمري !

ـ فانت تصر على الانكار . ولكنه ، هو ، اعترف بانه اخذ منك البارود والمواد المتفجرة ، وانك واياه خططتما لنسف الجريدة !

ارسل اليه الكتبي عينين طافحتين بالعتاب :

ـ لماذا تدعي اني شريك لك ، ايها الشاب ؟ لم تتهمني ؟ بم أسأت اليك ؟

لم يقو مهذب ابو سلام على احتمال نظراته ، ففض طرفه الى الارض ، وقد ازداد شعورا بالخجل ، بالاثم ، بالعار ...

ثم احس الدموع تنهل من مقلتيه !

بأي منطق يحاورهم ويدفع عن نفسه ؟ !

وفضل ان يظل في صمته ...

(١٠)

لم يستطع المشي .

انهضوه،واخذوه من ساعديه الى ركن ، ليمشي بقدميه الحافيتين فوق الرمل الذي نثروه على البلاط .

لم يستطع المشي .

كل حبة من رمل هي ابرة تخز قدميه المتورمتين ، فيحس لها ألما يبلغ اعماق قلبه .

تهاوى .

أراحوه . ثم عادوا يرفعون قدميه .

ـ من اين جئت بالمتفجرات ؟

تبدل الجلادون . انصرف اولئك في منتصف الليل ، وحل محلهم اخرون ، وقد دخل في روعهم انه الفاعل ...

ـ من اين جئت بالقنبلة ؟

ويهوي السوط المضفور .

ويرعد الصوت في سخرية حاقدة :

ـ دعك في صمتك ! اياك ان تتخلى عنه !

ويعود السوط الى ايقاعه على القدمين : طاء ، طاء ، طاء ...

ويزمجر الصوت الغضوب :

ـ تكلم ، ايها الغبي ، تكلم ! ان صمتك يثيرني !

أحس انتصارا عليهم .

ـ كيف تحتمل هذا العذاب ، وانت ذو الجسد الضاوي الهزيل ؟!

ابعاد بلا وطن

ـ تابع المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

ـ خرجت عن طورك .
ـ لا .. عالمي يتكامل بفنائه .
ـ غريب أنت ، كرفيف الاجنحة التي حدثتكوناجتك ثم هربتمنك.
الهاتف يرن :
أتناول السماعة وأنصت مصعوقا . البلاغات العسكرية تتتالى . العدو يتوغل في وطني . والبلاغ العسكري الخامس عشر ينص على ان مجموع خسائرنا في الاعتداء قد بلغ بين ٦١ ما بين قتيل وجريح ومفقود من القوى المسلحة وحدها .
أهدأ قليلا . اشعل لفافة . اضرب الطاولة بكلتا يدي ، تهدئني بصوتها يتهادى الي :

* * *

على شفير الكون تمتد هوة حمراء
اعصابي تتجمد
تكامل أصفر
خطوط محددة في غيب ،
مضعضعة بالاسود
خيالي يتطاول ، يصدمه فراغ
قدم في العدم ، كف في البدء

* * *

وأية بداية ... تلك التي تعنين ؟ انها نهاية النهايات .
اسمعي :
ذهني ممزق ، فلتّعه السم .
جلدي يابس ملتصق بعظامي ، ضيق على جسدي ... على مرمى يدي زجاجة ويسكي من نوع رديء أكرع منها بنهم وبذاءة ، بينما تجمدت الشراشف تحت جسدي والتفت على بعضها منكوية باحتراقي الداخلي :
ـ لماذا انا عدت ؟ لماذا اعود ؟ لماذا سأعود ؟
الوشوشات تصطدم باذني اجراً من الهمس وأجبن من الصراخ .
بين انهزيمة والرفض بقائي تكريس للهزيمة ، عودتي رفض للهزيمة .

←

اني انتصر عليهم . انتصرت ، بصمتي ، على السلطة كلها !
ـ اعترف ، وانج بنفسك !
هناته وئام المعراوي على صموده . ولكن اباه الشيخ وامه العجوز لاحا له مذهولين .
ـ اعترف . ان صمتك يقطع اوردتي !

(١١)

ساوره الخوف .
خشي ان تفيض روحه بين ايديهم ، فيضيع كتابه الموعود !
والجلاد الغضوب يلوي عليه ببسطاره :
ـ تكلم ، يا ابن العاهرة ...
ويهوي عليه ببسطاره :
ـ انة واحدة ، آهة ، وانا اكف عن ركلكبقدمي !
كم من مسيح ، في سجون عصرنا المتحضر ، يصلب ،يقتل، في كل ساعة !
والغضوب يتوسل اليه ، وقد بح صوته من اجهاد :
ـ أنا ، أيضا ، انسان . اني حزين من اجلك . تكلم...
ويركل ، ببسطاره الثقيل ، الصدر ، والخاصرة ... ويدور حوله ، ليركل ، ببسطاره الثقيل ، الصدر ، والخاصرة ،والقلب ..
ـ ان صمتك يجرحني ، يقتلني ، ايها العنيد . تكلم ، ارجوك.
انا ، أيضا ، انسان . ان لي اولادا احبهم . انا احبك ...
وتراءت له ونام المعراوي ، منحنية على نعشه تبكي ، ومن ورائها امه وابوه .
وهو ، في نعشه ، قد فقد رجاءه الكبير : ان يؤلف كتابه !

(١٢)

أفلت ذو الرداء الابيض اليد النحيلة :
ـ قد مات !
أطلق الغضوب صرخة دوت :
ـ آه ! كم توسلت اليه أن يتكلم ، ان يئن ... فما انفرجت شفتاه !
وانهار يبكي ، كطفل فقد امه :
ـ قتلته ! قتلني ! كم كنت احبه ! آه ...
ـ انت قصّرت في ان توضح لهم الحد الذي ينبغي ان يقفوا عنده .
دافع ذو الرداء الابيض :
ـ ولكن الركل بالبسطار ، في حالة غضب هستيري ، لم يكن من الاقانين المنبعة !
ـ ان من حق الجلاد (وخبط بقبضته على طرف المكتب)انيغضب ازاء الصمت ! ان من حقه ان يحنق ، ان يثور ... وعندئذ يخطيء في تقدير مدى احتمال الذين بين يديه . الجلاد انسان ، يخطيء في التقدير احيانا .

(١٤)

مع سقوط شعاعات الصباح الاولى ، انقلب الوجوم في العيون المتعبة الى ارتياع :
لقد عثروا على الفاعل الحقيقي !!!!..

(١٥)

لم يصدق الشيخ الطاعن آذنيه ، لا ولا صدق ما ترى عيناه... وكمجنون لحق بهم :
ـ نعم ؟! ماذا تقولون ؟.. لم اسمع !.. ماذا جرى لولدي الاصفر ؟! ولكن مهذب ، كما نعرفه ، مسالم ، وديع ! قلتم ، قبل اليوم ، ان اخاه متطرف ، ثائر ، فوضوي ، فسددتم الى قلبه الرصاص ! ولكن ابننا الاخر ، ماذا فعل ؟..
وارتد ، بنظره الكليل ، الى الجثمان المسجى :
ـ عائشة ! اين أنت ، يا عائشة ؟ تعالي فاشهدي . لقد قتلوا ، الاوغاد ، ولدك الاخر ! يقولون كان ذلك منهم « خطأ في الظن » ، ثم كان « خطأ في التقدير » ! أنا لم أفهم ما قالوا ...فهل فهمت انت ، يا عائشة؟!
وفطن الى ما أودعوا في كفه :
ـ أعطوني ، يا عائشة ، قبضة من مال ، انظري ! ويلهم ، لقد اعتقدوا ان في وسع الوالدين ان يطعما بثمن دماء ابنائهما الى يوم الدين ! أي قدر حل بأسرتي ؟!
وانحنى على الجثمان ، يتلمسه براحتيه ، ويبكي .

فاضل السباعي